المبحث الثاني

ترتيب فصول العبقرية

يحاول هذا المبحث أن يجيب عن أسئلة أثارها العقاد في ذهني عقب قراءتي للعبقرية ، وهذه الأسئلة هي :

لماذا رتب العقاد فصول العبقرية بهذا الشكل ؟ وكيف أسهم هذا الترتيب في تماسك نص العبقرية ككل ؟

وللإجابة عن ذلك أقول : إن عبقرية عمر تقع في اثني عشر فصلاً ، يمكن تقسيمها إلى أربعة محاور :

المحور الأول : ويشمل الفصول من الأول وحتى الرابع .

١- عبقري ٢- رجل ممتاز ٣- صفاته ٤- مفتاح شخصيته

المحور الثاني : إسلامه .

المحور الثالث : عمر والدولة الإسلامية . عمر والحكومة العصرية.

المحور الرابع : عمر والنبي . عمر والصحابة .

ثقافة عمر . عمر في بيته .

والمحور الأول بما يتضمنه من أربعة فصول يعد محاولة من العقاد لتهيئة ذهن المتلقي لاستقبال فكرة ما .

وهذه التهيئة قام بها العقاد عن طريق عرض الصفات التي كانت أصلية في الشخصية العمرية ، إضافة للظروف التي هيأت لهذه الصفات أن تنمو شيئًا فشيئًا حتى امتلكته بأصالتها فيه ، وكبح جماحها بقوته فوجهها حيثما أراد .

وأثبت من خلال هذه الفصول أيضًا أن نفس عمر بن الخطاب صالحة للتوجيه ، وعند هذه المرحلة انتقل العقاد إلى (المحور الثاني) وهو الفصل الخاص بـ (إسلامه) ، وهذا الفصل حينما جاء به العقاد كفصل تالٍ للفصول السابقة كان الهدف منه التوكيد على أن إسلام ابن الخطاب لم يكن مفاجأة وليس بالأمر الغريب ، فهناك أسباب عديدة هيأت له ذلك :

« وكان عمر مستقيم الطبع مفطورًا على الإنصاف فلم يكن رجل مثله ليستريح إلى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها إذا نبه إليه وهدى إلى ما هو خير منه .

وكانت النزعة الدينية وراثة في أسرته على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الإسلام وكان له قبل الإسلام رجل في عمومته يقدح في الوثنية ويبحث عن الحق وفي النصرانية واليهودية ، ويبتلى أهله بالخلاف ويبتلونه بالإيذاء والحبس والإرهاق ، ونعني به زيد بن نفيل .

وعمر نفسه ..... ألم يقل إنه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات ؟

ألم يكن في الجاهلية يندر أن يعتكف ليلة من كل أسبوع .....؟» [1] .

فهذه العوامل إضافة للصفات التي ذكرت في الفصول السابقة تؤكد أن الفصول التي سبقت هذا الفصل كانت بمثابة التمهيد له .

أما المحور الثالث فيندرج تحته الفصلان :

(أ) عمر والدولة الإسلامية . (ب) عمر الحكومة العصرية .

وأرى أن العقاد لم يأت بهذين الفصلين بعد الفصل الخاص بـ (إسلامه)

---

(١) عبقرية عمر ص ٧١ ، ٧٢ .

بشكل اعتباطي بل عمد إلى ذلك ، وكأنه يقول للقارئ إن ابن الخطاب كان مؤسسًا للدولة الإسلامية منذ إعلان إسلامه :

« ..... كان مؤسسًا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه وأعزها بهيبته وعنفوانه »[1] .

وأيضًا لأن :

« ..... تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان ، فإذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك ، ولن يطول بك الاستطراد ، حتى تثوب إليه كرة أخرى »[2].

ولأن عمر بن الخطاب مؤسس الدولة الإسلامية لا محالة ، ولأن هذه الدولة أسست على العدل ، فوازن العقاد في الفصل التالي مباشرة (عمر الحكومة والعصرية) بين نظام حكومته وبين الحكومات العصرية ليثبت تفوقه وعبقريته بمقاييس القدماء والمحدثين .

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازًا بعمله ممتازًا بتكوينه ، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد في عرف الأقدمين والمحدثين ، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين .

إذا وصفته للمحدثين الذين يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز ، أو رجل موهوب »[3].

فالسياسات العمرية أثبتت تفوقها على السياسات العصرية ، فالفاروق :

« كان يحصى أموال الولاة ثم يستصفى ما زاد عليها كلما فشت من النعمة لا يخبرونه بمصدرها .

وفي هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه في طرائق الحكومات العصرية .

---

(١) عبقرية عمر ص ٨٥ .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٣) المرجع السابق ص ١٣ .

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع ؟

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب ، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف في تنفيذه ....» [1].

فالعقاد أثبت له السبق في الفصل السابق في تأسيسه للدولة الإسلامية وأثبت له التفرد والعبقرية في هذا الفصل بتفوق سياساته على سياسات العصور الحديثة .

وهذا ما دفع العقاد إلى وصف من ينالون من تلك العصور القديمة بالحمق:

«يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث ! تخجله وهو واقف بين يدي العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات» [2].

أما المحور الرابع والأخير فيضم الفصول التالية :

١- عمر والنبي .　　٢- عمر والصحابة .

٣- ثقافة عمر .　　٤- عمر في بيته .

والسؤال الذي يتبادر للذهن : لماذا قدم العقاد الفصول التي تدور حول دور عمر في بناء الدولة الإسلامية ومقارنة حكومته بالحكومة العصرية على الفصول الخاصة بالجوانب المعنوية في شخصيته ؟

ويجيب العقاد «ولا يحسبن حاسب أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصودًا في النيات قبل ذلك فإن الذي يحسب هذا الحسبان يخطئ تلك الخطأة الشائعة .

التي لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة :

يخطئ في وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هي من البدع في زمن كان . لأن العظمة لم تكن قط وقفا

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١١٤ .　　(٢) المرجع السابق ، ص ١١٩ .

على العصر الحديث ، ولاسيما العظمة التي ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد»[1] .

وقد بدأ العقاد هذا المحور بالفصل الخاص بعلاقة عمر بالنبي ﷺ لأن النبي كان الأُسوة بالنسبة له :

«فمحمد نبي وعمر خليفة ما في ذلك خلاف . ولابد بينهما من فارق ما في ذلك خبر جديد ، فما هو الفارق الذي يعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم»[2].

إضافة إلى أن علاقة الرسول ﷺ بالفاروق لم تكن كأية علاقة :

«فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب ، ويؤمن به إيمان إعجاب ، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد ، وما هو فيما خلا ذلك بصغير في نظر نفسه أو في نظر الناس»[3] هذا الحب هو الذي دفعه إلى اتباع نهجه اتباعًا دقيقًا ، وقد ظهر ذلك بصدق في علاقته بالصحابة ، وتمثل خير تمثل عقب وفاة الرسول مباشرة ، فجاء الفصل التالي عن (عمر والصحابة) ، وكان أول تطبيق عملي عقب وفاة الرسول الكريم ﷺ ، متمثلاً في مبايعة الفاروق لأبي بكر الصديق :

«بايع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه»[4].

وجاء ترتيب فصول هذا المحور على النحو التالي :

١- عمر والنبي ٢- عمر والصحابة

٣- ثقافة عمر ٤- عمر في بيته

---

(١) عبقرية عمر ، ص ١٠ . (٢) المرجع السابق ، ص ١٣٠ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٢١ . (٤) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

والترتيب الطبيعي لها :

١- عمر والنبي ٢- عمر والصحابة

٣- عمر في بيته ٤- ثقافة عمر

ولكن العقاد قدم الفصل الخاص بـ (ثقافة عمر) على الفصول الموسوم بـ(عمر في بيته) بل ختم بالثاني فصول العبقرية !

ولعل السبب في ذلك أن العقاد ركز القول في هذا الفصل على علاقة الفاروق بالنساء ، وقد كان عمر (صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع»[١]) ومنها (حيوية الروح ، وحيوية الخلق ، وحيوية الذوق ، وحيوية العقل ، وحيوية الجسد ، وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات»[٢]) .

وهذا ما حدا بالعقاد إلى أن يفسر طلاقه لزوجته شموس بعد إسلامه قائلاً: «فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر ، وهو على شموس المرأة غير صبور ؟ لعله ذاك»[٣].

ولعل في ذلك ما يفسر لنا سبب وضع هذا الفصل في آخر العبقرية ، وأن أول فصل بعد إعلان إسلامه اختص بـ (عمر والدولة الإسلامية) فقد كانت هي البناء الكبير في حياته . والعقاد بهذا الترتيب يؤكد لنا حضور المتلقي من بداية النص وحتى نهايته ، لأن ترتيب فصول العبقرية بهذا الشكل يؤكد لنا أنه كان يهدف من ورائه إلى إقناع القارئ بهدفه الأساسي ، وهو تفرد الشخصية العمرية .

---

(١) عبقرية عمر ، ص ٤٦ . (٢) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ، ص ١٩٧ .

فقام المحور الأول على شحذ ذهن المتلقي بصفات أهلته للدخول في الدين الجديد ، وهو ما دار حوله المحور الثاني ، وانطلق بعد هذا التمهيد إلى التطبيق العملي وهو بناء الدولة الإسلامية ، ثم وازن بينها وبين الحكومات العصرية ، فظهر ترتيب الفصول وكأنه خيط رئيسي في نسيج النص من حيث التدرج في بنائه ، فأسهم بشكل فعال في تماسك الأفكار المطروحة داخل نص العبقرية .

* * *